﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾ [الحجر: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تشابه الظّالمين في نوعِ العذاب، عبرةٌ لكلِّ ظالمٍ، والتّاريخ يعيد نفسه

لما ذُكِرَت قصّة لوطٍ، ضُمَّ إليها ما هو على طريقها ممّا عُذِّبَ به القوم بنوعٍ يشبه عذاب قوم لوطٍ في كونه نارًا من السماء، فجاءت هذه الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَيۡكَةِ﴾: أصلُ (أيك): أصلٌ واحِدٌ، وهي اجتماعُ شَجَرٍ[2]، والأَيْكَةَ: الشَّجَرُ الكَثيرُ المُلْتَفُّ، وقيلَ: هي الغَيْضة تُنْبِتُ السِّدر والأراك ونَحوهُما مِنْ ناعِمِ الشَّجَرِ، وخَصَّ بعضهم بِهِ مَنْبَتَ الأَثْل ومُجتَمعه[3]، وقيلَ: الأَيْكة جَماعَةُ الأراك[4]، والجَمعُ أَيْكٌ، وأَيِكَ الأراك فهو أيِكٌ واسْتَأْيَك، كِلاهُما: التفَّ وصارَ أيكة[5]، وأُطْلِقَتْ هنا مُرادًا بِها الجِنْسُ إذ قد كانَتْ مَنازِلُهم في غَيْضَةٍ مِنَ الأشجارِ الكثيرَةِ الوَرَقِ[6]، وأصحابُ الأَيْكَةِ: هم قَوْمُ شُعيبٍ عليه السلام وهم مَدْيَنُ، وقيلَ أصحابُ الأَيْكَةِ فريقٌ مِنْ قَوْمِ شُعيبٍ غيرُ أَهْلِ مَدْيَنَ، فأهلُ مَدْيَنَ هم سُكّانُ الحاضِرَةِ وأصحابُ الأَيْكَةِ هم باديَتُهُم، وكانَ شُعيبٌ رسولًا إليهم جميعًا[7].

المَعنى الإجْماليُّ:

عقابُ المكذِّبين، مَثار تفكيرٍ وعظةٍ للمُتفكِّرين

يقول تعالى: وقد كان أصحابُ الغَيضةِ - وهي جماعةُ الشَّجرِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/79.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيك).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أيك).
(4) ابن فارس، مقاييس الله، وابن منظور، لسان العرب: (أيك).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أيك).
(6) الخليل، العين، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/71.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/71.

المتَفِّ المُجتَمِع - ظالِمينَ بِشِركِهم باللّهِ، وتَكذيبِهم برَسولِه شُعَيبٍ عليه السلام، وقَطْعِهم الطريقَ، وتَطفيفِهم في الكَيلِ، وبَخسِهم الناسَ أشياءَهم(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الوصل بالواو، في ﴿وَإِن كَانَ﴾ من الآية:

استمرار الظّلم في اللّاحقين، وتوالي الانتقام منَ الظّالمين

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾، وفيه عُطفَت الآيةُ على ما سبقها لاشتراك القصّتين في جهة جامعةٍ بينهما؛ فإنَّ أصحاب الأيكة مِثلُ قومِ لوطٍ في التّكذيب وقبح المعاملة مع النّاس، كما تشترك القصّتانِ في نوعِ العذاب، وفي المكان، وفي كونهما على طريق واحدة، فأهل مكّة يشاهدون ديارَهم في طريق تجارتِهم، ففي الوصلِ إشعار باستمرار الظّلم، واستمرار الانتقام منَ الظّالمين(2).

فائدة التّعبير بـ﴿وَإِن﴾ في الآية الكريمة:

تعظيم شأنِ الإخبار عن الظّالمين، للاعتبار بمآلهم وسوء عذابهم

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ أفاد التّعبير بـ ﴿وَإِن﴾ المخفّفة منَ الثقيلة أنَّ اسمها ضمير الشأن محذوف، والتّقدير (وإنَّ الشّانَ)، ولمّا كان الخبر مفسّرًا للشأنِ دلَّ على أنَّه ذو شأنٍ عظيم ينبغي سماعه والاهتمامُ به والاعتبار بشأنِه وبمآلِ الظّالمين.

فائدة تأكيدِ الآية بتأكيدين في سياقها المحكم:

إنكار الغواية، لا يدفع العقاب عنِ المنكر الكذّاب

لمّا ورد في الآية التأكيدُ بـ(إنْ) المخفّفة منَ الثقيلة، واللّام الفارقة بَيْنَ (إنَّ) الّتي أَصْلُها مُشَدَّدَةٌ وبَيْنَ (إنَّ) النّافيَة، فلمّا ورد التأكيدان دلَّ على أنَّه أنزلهم منزلة المنكرين لأجل تماديهم على الغواية والباطلِ مع العلم بالحقّ، كما أنَّهم لمّا كانوا منكرين أن يكون عذابُهم لأجل التّكذيب تضمّنت الجملة تأكيدين(3).

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/45، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/544.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/79، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/70 - 71.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/79.

سرُّ ذكرِ ﴿كَانَ﴾، في سياق الآية:

لايزال الظّالم يظلم، حتَّى يكونَ الظّلمُ طبعًا عنده، وسجيّة فيه

عُبِّرَ بـ﴿كَانَ﴾ للإشعار بأنَّهم كانوا مستمرّين على ظلمهم، وأنَّه كان مثلَ الطّبع عندهم، فلم يتركوه مع كثرة التّذكير والتّنبيه إلى ما كانوا عليه من الظّلم، ولهذا لم يقل (وإنَّ أصحاب الأيكة لظالمون).

توجيه التّسمية بأصحابِ الأيكة في الآية:

أصحابُ الأيكة كانوا في نعيم عظيمٍ، فظلموا فاستحقّوا العذاب

لمّا قال ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ دلَّ على اشتهارِهم بالأيكة، والأيك: الشَّجرُ الملتفُّ المخضرُّ الكثيرُ الورق المجتمع في غيضةِ من الماء ليفيد عظمَ الشجر وكبرَ ثمرتِها، فيدلُّ على أنَّهم كانوا أهل موضع كان ذا ماءٍ وشجر دائم[1]، للإشعار بدوامِ النّعيم الذي كانوا فيه، ولكنّهم ظلموا فاستحقّوا العذاب، وذهب الطبريُّ وغيرُه إلى أنَّ سبب ذكر أصحاب الأيكة هو أنَّ رسولهم شُعَيبًا عليه السلام أُرسل إليهم وإلى أهل مدين، فأَهْلُ مَدين هم سُكّانُ الحاضِرَة، وأَصْحابُ الأَيْكَةِ هُم باديَتُهُم، فأُرسل شعيبٌ عليه السلام إلى أمتين منَ النّاس، وعذّبتا بعذابين شتَّى، أمّا أهل مدين، فأخذتهم الصيحة، وأمّا أصحاب الأيكة، فكانوا أهل شجر ملتفٍّ كثيفٍ فعذِّبوا بالنّار منَ السّماء[2].

دلالة المجاز في التّعبير بـ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾:

التّسمية بأصحاب الأيكة إمّا بطريق النّقل وإمّا بتسمية المحلِّ باسم الحالِّ

لمّا كان المراد من ذكر أصحاب الأيكة هو البلدةَ، كان التّعبير بطريق النقل منَ الموضعِ الذي يكون فيه الشّجر إلى البلدة كلِّها، فيكون من قبيل النقلِ منَ الجزء إلى الكلِّ، ويحتمل أن يكونَ التّعبير بتسمية المحل باسم الحالّ فيه؛ لشهرة القوم بالأيكةِ، وللتّذكير بالنّعمة التي كانوا عليها، ثم غلب عليه حتى صار ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ عَلَمًا على البلدة مع الإشعار بمأخذِ المجا.

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/371.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/124، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/457.

نكتةُ اختيار لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ في السّياق:

لمّا كان لفظ الأصحاب يدلُّ على مقارنة الشّيء وملازمته، أفاد التّعبير بـ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ ملازمة القومِ للأيكة، واشتهارَهم بها حتّى صاروا يُنسبون لها، لأنهم كانوا يرتفقون بها في معاشِهم وحياتِهم، فكانوا في رياضٍ منَ الأرضِ، إشعارًا بالنّعيم الذي كانوا فيه.

صاحبُ الشّيء يدلُّ على ملازمتِه للشّيء واشتهارِه به

معنى الإضافةِ في: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾:

الإضافة هنا على معنى اللّام بمعنى اختصاصِهم بالأيكة التي صاروا يُنسَبون لها؛ لطولِ ملازمتِهم لها، وانتفاعِهم في حياتِهم منها.

الإضافة لاختصاصهم بالأرض الّتي لزموها

سرّ إيثار لفظ (الظُّلم)، دون (الكفر):

عبّر بالظالمين للإشعار بأنّهم تجاوزا الحدَّ والحقَّ في كفرِهم، وأنَّهم لمّا أنعم اللّه عليهم بالأيكة لم يشكروا نعمَه، وجحدوا بها، ووضعوها في غيرِ مواضعِها المختصَّةِ بها تعدّيًا وبغيًا.

من الظّلم عدم شكرِ النّعمة وجحودها

دلالة الوصف بالمشتقّ في قوله ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾:

أفاد التّعبير بالاسم المشتقّ الذي قُطعَ عن متعلَّقه أنَّ الظّلم صار وصفًا لازمًا لهم، وأنَّهم كانوا ظالمين في كفرِهم، ليدلَّ على أنَّهم اتّصفوا بأعظم الظّلم وأقبحِه.

أعظم الظّلم وأقبحه الشّركُ باللّه، وهو في القرآن ظلم عظيم